

قصة قصيرة..

تصبح الحياة أقل
قتامة أو أكثر
بهجة.

كان قد فرغ من
احتساء القهوة.
نظر في ساعة يده
متمللاً. بالتأكيد
لن يأتي أحد.

فجأة طالعاه
وجهه صالح
عبدالله يدخل من
باب المقهى مسرعاً.

تلقاه متهللاً:

- لو تأخرت دقيقة
واحدة لما وجدتني.

جلس صالح
لاهثاً، بينما أردف
عمر:

- سأسهر الليلة
في البيت. سهرة
عائلية احتفالاً بنجاح
ابني مصطفى. ثم
واصل كلامه
بصوت مشحون
بفرحة غامرة:

- لأول مرة ينجح
بتقدير جيد جداً.

همهم صالح
بنبرة فاترة:

- مبارك.

ثم لأن بالصمت على غير عادته.

فوجيء عمر. سألته بعد أن نظر إليه متمعناً، متحيراً.

- مالك.. يبدو أن المزاج الليلة ليس صافياً.

أرسل صالح آهة طويلة، ثم تدفق صوته مقوتراً..

- الليلة فقط؟... يا عمر يا أخي.. لا شيء - هذه الأيام - يجعل

المزاج صافياً.. هموم الحياة أصبحت لا تحتمل.. وغير هذا.. من في

مثل أعمارنا يعيش هائلاً، خالي البال.. ليس أقسى من الشيخوخة

طاف بعينيه
في جوانب
المقهى لم يأت
أحد بعد..
ناوشته الحيرة
للحظات. لم
يطل تفكيره.
مضى في
خطوات متثاقلة
نحو
مائدة خالية.
بعد قليل أقبل
النادل يسبقه
صوته:

- أهلاً عمر بك.

ثم أضاف

وهو يضع

فنجان القهوة

أمامه:

- الأستاذ

رفعت سال عنك

بالتليفون وقال إنه

ربما لا يجيء

الليلة. وصالح

عبد الله؟ لم أره

...الأستاذ

مرسي هو الذي

كان هنا. لم

يجلس أكثر من

عشر دقائق.

الموت فجأة

أخرج علبة سجائر من جيبه. سحب منها لفافة أشعلها ثم
أخذ يدخن متفكراً. شرد بذهنه مع ليااليه في المقهى. هددت
صدره مشاعر وأحاسيس حلوة. كم يعيش هذا المكان. لشد ما
يتشوق له حين يغيب عنه. ساعات لاحصر لها من عمره قضاه
هنا كم كانت ساعات حلوة إنها ليست كما يظن البعض وقتاً
عقياً ضائعاً، في اللعب والثروة والأحاديث اللاهية. لا تمر ليلة
بدون أن يناقشوا طويلاً هموم حياتهم. في المقهى رغم الصخب
والضجيج. تهدأ نفسه، يصفو خاطره من بعض ما يكرهه،

بقائه: عن عمر مريم

لنفسى هالعا: ماذا سيفعل أبناي وزوجتي إذا مت فجأة.. أنت تعرف ظروفى جيداً.. وتعرف أن جدران مدفننا تصدعت، وبابه يوشك أن يتهاوى.. المهم.. قلت لنفسي: لابد من ترميمه.. لقد سبق لي أن فكرت أكثر من مرة في هذا الأمر، ولكني هذه المرة لم أتكاسل.. بعد العصر اتصلت بالحاج غنيم التربي.. اتفقت معه، وسيبدأ العمل بعد غد.. أتعرف فيم فكرت أيضاً؟

قاطعه عمر ضاحكاً:

- أرجوك.. حرام عليك.. لا أريد أن أعرف الليلة أكثر مما عرفت.. ثم نهض قائلاً:

- هل تأذن لي؟.. الأولاد كما قلت لك ينتظرونني..

- ساهمك الليلة شر هزيمة إذا جرؤت على أن تلعب معي..

قال عمر ساخراً:

- أنت لست شاطراً إلا في الكلام.

علا صوت مرسى:

- أنت الجاني على نفسك.. لن أرحمك الليلة.

تساءل رفعت فجأة:

- قل لي.. ماذا فعل صالح عبدالله؟.. لم نره من يومين.

رد عمر:

- انتهى أول أمس من ترميم المدفن.. وسمعت أيضاً أنه اشترى كفنًا!

علق مرسى:

- لاحول ولا قوة إلا بالله.. أمره أصبح يحير.

جاءهم صوت النادل من آخر المقهى: تليفون يا عمر بك.

أسرع عمر إلى التليفون.. بعد قليل أقبل مكفهر الوجه، ذاهلاً.

حملقوا في وجهه في تساؤل وقلق ودهشة.

جلس عمر وهو يهمهم بصوت متهدج:

- حكمتك يارب.

وقبل أن ينطق أحد أضاف والدموع تترقرق في عينيه:

- كأنه كان يعرف أن الموت سيطرق بابه.

صرخ مرسى مبهوتاً:

- من الذي مات؟.. صالح عبدالله؟!

- ليته كان هو!

- من مات إذن؟

رد عمر في صوت باك مبجوح:

- ابنه عاطف هو الذي مات.. مات في حادث!

لل

بأيامها الشحيحة القائمة.. العمر ضاع.. لم يبق منه إلا القليل.. انتهت السنوات الحلوة.. أين أيام الآمال والطموحات نحن الآن على حافة النهاية..

- صالح.. ما حكايتك الليلة؟!

أجابه بصوت غشيته رجفة خفيفة:

- هل تذكر عطية شاهين؟.. جاري الذي سبق أن حدثتك عنه..

تعيش أنت.

اغتم عمر. قال واجماً:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. الله يرحمه.

استطرد صالح بعد أن شرد بفكره قليلاً:

- مأساة أن يموت الإنسان فجأة.. تصور أنه كان في عمله..

يعمل وكله نشاط وحيوية.. وفجأة ندت عنه أمة ألم. التفت

زملأه ناحيته، هالهم منظره.. كان يضع يده على صدره متوجعاً..

أسرعوا إليه.. انهالت عليه تساؤلاتهم. رد بصوت يختنق: وجع في

صدري.. وجع رهيب. وبعد لحظات وقع مغشياً عليه. وقبل أن

يذهبوا به إلى مستشفى أو طبيب فاضت روحه إلى بارئها.

خيم الصمت الكثيب للحظات. عاد صالح يقول وهو يغالب

انفعاله وتأثره:

- كان معي من يومين.. يحدثني عن مشروع سيبدأ في تنفيذه بعد

إحالته إلى المعاش.. كانت الفرحة ملاء عينيه وهو يقول لي: لم يبق

سوى ثلاثة شهور، أتحرك بعدها من قيود الوظيفة ورتابتها اللعينة..

سأصبح من رجال الأعمال.. من صغارهم طبعاً، ولكن من يدري..

ثم أكمل كلامه مازحاً: ربما تحدث معجزة وأصبح مليونيراً!

تنهد عمر قائلاً:

- كل شيء بإرادة الله.. هذه سنة الحياة.. كلنا سنموت.. البقاء لله

وحده.

اتقدت مشاعر صالح.. انفجر قائلاً:

- جيلنا يتساقط.. رمزي مات السنة الماضية.. منصور في العناية

المركزة.. أسبوع حتى اليوم وهو في غيبوبة لا يفيق منها.

تأفف عمر:

- أستغفر الله العظيم.. أين إيمانك يارجل؟.. قل لن يصيبنا إلا ما

كتب الله لنا.

سكت صالح بينما استطرد عمر:

- ولكن قل لي.. ما حكايتك هذه الأيام؟.. حقيقة أنك تنزع إلى

التشاؤم.. ولكنك أصبحت تغالي في تشاؤمك.

رد صالح:

- ماذا أفعل.. ليس بإرادتي.. قضية الحياة والموت لا تبارح فكري..

أي خبر وفاة يهزني من أعماقي.. أما حالات الموت فجأة فتفرعني..

تقلقني كثيراً.. اليوم مثلاً.. فور أن بلغني وفاة عطية قلت

حوض الموت

لسليمان القوابعة

■ شخوص الرواية:

شخوص الرواية كثيرة كثرة مربكة، لكن القارئ يستطيع أن يميز بين الشخوص الأكثر حضوراً والأعمق تأثيراً، وبين الشخوص الثانوية المتقمة للبناء الروائي. أما الشخوص الثانوية فنذكر منها: عوض بن خلف، النشاش خادماً مسجداً ابن الحنفية، وموسى بن إبراهيم، وعبدالعزیز بن محمد مؤذن جامع الحميدي، وهارون بن سحيمان، ونایل بن حمد، وحماد بن يحيى الطالب الذي هرب من المدرسة بسبب سوء معاملة المعلم حرب بن الأضرس، وذهب لقتال اليهود في فلسطين ونجا من الموت بأعجوبة، وجاء ليموت بطلق ناري طاش في عرس بالطفلة. وغيرهم ممن لا ضرورة لتدوين أسمائهم.

أما الشخوص الرئيسية فهم:

١ - أحمد بن سعود الدباغ: رجل جاء من الحجاز أيام ثورة الشريف حسين، استوطن الطفيلة، وعمل معلماً في مدرستها، رجل محبوب من الناس ومن التلاميذ، يحترمه الناس ويقدرونه لعلمه وإخلاصه وحذبه عليهم، لا يقبل ظلم زملائه المدرسين اليساريين لطلاب المدرسة، ولا سوء أخلاقهم وتصرفاتهم، وهو في صراع دائم معهم. يخطب الجمعة، ويصلح بين الناس، يثور إذا ارتكب المنكر جهاراً، يستر على أهل الذنوب معانيهم إذا استتروا، يتدخل في الوقت المناسب ليحامي النساء من الوقوع في الخطأ تحت ضغط الحاجة. [ص ١٢٣].

رواية سليمان القوابعة « حوض الموت » واحدة من الروايات الجديرة بالدراسة المتأنية، لاستكناه محتوياتها، وتجليه محاسنها، والإشارة إلى هفواتها، وهذه الرواية تدور أحداثها في مدينة الطفيلة جنوب الأردن بدءاً من نهاية الدولة العثمانية إلى نهاية حكم الملك عبدالله بن الحسين.

وعبر شخوص الرواية الرئيسية والهامشية استطاع القوابعة تجسيد معاناة أهل الطفيلة هذه السنين

الطويلة. كما استطاع باقتدار أن يخلد مدينته الصغيرة في

عمل أدبي له ما بعده.. واستطاع كذلك عبر سرد الأحداث تصوير مدى التلاحم والتناغم بين الأردنيين والفلسطينيين، كما يبين أن مشكلة فلسطين ليست إقليمية، بل هي إسلامية أولاً وأخيراً.





بقلم:

حيدر قفنه

عطاءالله المريع، مسؤول البلدة الجديد، الذي خلف القائمقام عبدالمهدي، فأخذ يتجول في جهات البلدة الأربع، ليتعرف على أصحاب الأموال والقطعان والأطيان، زاعما أنه سيطور البلدة أكثر من سلفه القائمقام عبدالمهدي [ص ١٦٠]، لكنه استغل منصبه ليسرق أموال الناس باسم الضرائب، أخذ الرشوة مهما كانت حقيرة.

ومن النساء نجد شخصيتين بارزتين أيضا، هجة، وهي المرأة العجوز، وراوية بعض الأحداث من أيام (العصملي) وهي من الجيل الأول في أحداث الرواية، وقد حضرت أيام الغزو (زوبر نقيع الدم ص ١٦) وهي قرينة لجندات الجيل الثاني (علي بن القف، وجدةعان بن عاتب، وأغضيان وأضرابهم). وقد ماتت هجة في منتصف الرواية تقريبا.

أما الشخصية الثانية من النساء، فهي خضرة بنت مطلق، زوجة الشيخ مبارك ابن سالم، امرأة خيرة، صاحبة فضل، كان زوجها يوصيها بتفقد الناس والحنو عليهم، وكانت امرأة برزة، تستقبل الضيوف وتكرمهم في شق الرجال (المضافة) ريثما يحضر زوجها.

أما المعلمون، فكان منهم غير الشيخ ابن مسعود، الذي مر ذكره ثلاثة هم: حرب الأضرس، وحناديب، وعطاش، وثلاثتهم جاءت بهم الوظيفة للعمل في مدرسة البلدة [ص ٧١]، وكان ثلاثتهم ذوي ميول يسارية

تاريخ البلدة وما وقع فيها أو لأهلها من مأس وأحزان، ويهتم بأمور الطفيلة وناسها [ص ١٤٧].

٤ - أغضيان: صاحب ربابة، يغني عليها أوجاعه وأوجاع الناس [ص ٥١]، ويشارك أهل بلده في أفراح الطفيلة بالشهداء، فتجري الخيل في سباقات وأشواط، ويكون لصوته الجهوري المكان الأول في توصيل المعلومة للناس، وفي زمن القحط وليالي البؤس أو الفرح هو فارس الربابة الوحيد [ص ١٨٢]، ورغم هذه الروح المرحية، إلا أنه لا يقر الخروج على تعاليم الإسلام، ولا على ما تعارف عليه الناس من الحياء.

٥ - مبارك بن سالم: رجل غني، صاحب مضافة وبيوت شعر، ماله كثير، وخيره للناس كثير أيضا، قلبه لا يحمل الحقد، بل يعفو ويسامح، حتى مع الذين يسرقون ماشيته وأغنائه، يعاتبهم ويطلق سراحهم، لأنه يفترض فيهم الجوع والحاجة، مما أطمع للصوص فيه [ص ٦١، ١٠٩]. وأما على نفسه، فهو رجل قليل الزاد غير متنعم حتى لا ينسى الفقراء وذوي الحاجة [ص ٨٠]، وهو رجل حلیم يضبط نفسه عند الغضب، وكان حريصا على عمل الخير، يطالب زوجته خضرة بنت مطلق أن تذكره به إن أنسته مشاغل الحياة عن فعله، أو تنفقد هي الناس فتصلهم بالبر والخير [ص ١٥٨].

هؤلاء هم صفوة شخوص الرواية، وأما من موظفي الحكومة فنجد شخصيتين بارزتين: الأولى: خنيفس بن ربيع، وهو موظف الدولة لجمع الضرائب من الناس، انتقل من ملاك الدولة العثمانية (العصملي) إلى ملاك حكومة الإمارة، لكنه بقي على سوء خلقه، فهو رجل نذل، كثير السوء، يعامل الناس بقسوة وقظاظه، ويضربهم بسوط كذنب الفيل، سليل اللسان، غشوم ظلوم، مرتش.

والشخصية الثانية من موظفي الحكومة:

داعية واع يفهم في السياسة كما يفهم في معالجة النفوس المتعبة الحائرة، يترك التعليم في المدرسة ليتفرغ للدعوة وإصلاح المجتمع [ص ١١٢، ١١٨، ١١٩]. عينه لا تنام عن البلدة وأحوال الناس، فيمسك بالمرتشين من الموظفين والحكام الإداريين [ص ١٦٤]، يشجع على التوبة [ص ١٦٦]، يصفه الناس بالصوفي [ص ١٧١] لكنه عابد على وعي وإدراك يحن في أواخر أيامه إلى الحجاز حيث مولده ومنبته [ص ١٨٩]، يخفي أثره وتنقطع أخباره، فيفتقده الناس ثم يعلمون بموته في الحجاز، فيترحمون عليه، لكنه يشكل في أذهانهم صورة مثالية مضيئة للرجل الرباني المخلص، الذي لم تدنس شبيهة، فيمسي عندهم رمزا.

وقد استطاع القوابعة - برسمه لهذه الشخصية - إعادة الاعتبار للعلماء أو المتمسكين بالدين، بعد أن شوه العلمانيون واليساريون هذه الصورة في كتاباتهم وأفلامهم ومسلسلاتهم.

٢ - علي بن القف: رجل على أبواب الخمسين، أبوه الحاج عبدالله بن القف يعيش في قرية، وله علم بالدين، يستفتيه الناس [ص ٤٠] وكان شهما يفك المربوط بسبب ضريبة (العصملي) * [ص ٤١] فليس غريبا أن يكون ابنه على مثله في الشهامة، فهو رجل مهذب، شهم، لا يخاف عسكر الترك، يتصدى لهم، يعرف اللغة التركية ويتحدث بها مع الجند، وينتصر للضعفاء الذين يعتدي عليهم عسكر الترك [ص ٥٠]، وكان صلب العود، قوي الشكيمة، اعتقله الترك [ص ٥٣] وعذبه، ونقلوه بالقطار إلى الشام، ولكنه مات في الطريق قبل أن يصل إلى سرايا الترك [ص ٥٣]، وقد ترك موته ألما عميقا في نفوس الناس.

٣ - جدعان بن عاتب: رجل من عامة أهل الطفيلة، معروف عندهم، صاحب أشجار زيتون، أحد الرواة الذين يروون

وانتماءات حزبية، وكان ما يميزهم عن غيرهم من المعلمين قسوتهم على تلاميذ المدرسة، وبذاءة ألسنتهم، وكثرة معارضتهم لابن مسعود، وسخريتهم منه، ومن خطه الفكري والتعليمي والتربوي، ويرمونه بالتخلف وعدم فهم الحياة، وكان لهم سلوك في الخفاء يتمثل في سهرات مشبوهة، وشرب الخمر، بل ويحضر (حرب الأضرس) الأعراس متخفيا في لباس امرأة، ليندس بين النساء ويطلع على أسرارهن، ويضبط متلبسا بهذا الجرم، ولولا سمعة المدرسة، وسمعة النساء والمرأة التي يطاردها، لنكل به من ضبطه متلبسا بفعلته الخسيسة تلك.

ويجلى القوابعة سلوكيات هذا النمط من المعلمين المستترين خلف الثورية والحزبية [ص ٩١، ٩٢] بما يفصح كل هذه الشعارات الجوفاء، وفي نهاية المطاف يعيش حرب هذا منبوذا في البلدة من الناس، وقد نبذه حزبه أيضا [ص ٢٠٥].

أما حناديب، فهو على شاكلة زميله حرب الأضرس، وإن كان حضوره أقل، وفاعليته أضعف، لكنه مسابير لحرب في سلوكه وسوء خلقه.

بينما المعلم (عطاش) يأخذ خطأ آخر، إذ يسترد نفسه من هذه الطريق المعوجة، حيث توقظه كلمات الشيخ ابن مسعود، وقسوة حرب الأضرس على التلاميذ، وبذاءة لسانه وزميله حناديب، وتلمسه لحياة الناس بعد رؤيته أحد التلاميذ يأكل التمر بنواه، فيعرف معاناة الناس بعيدا عن الشعارات المضللة، فتنتابه حالة من مراجعة النفس، تدفعه إلى العزلة الشعورية، والانسحاب النفسي من هذا الخط السيئ، حتى تصل به الحال إلى كثرة التأمل، والانفراد بالنفس، ومن ثم الاستقامة والاقتراب النفسي والروحي من زميله الشيخ ابن مسعود، وحب الناس والتعاطف مع التلاميذ، فينقلب مدافعا عن الشيخ ابن مسعود.

وهناك شخصيتان بارزتان أيضا، وهما يمثلان نموذجا آخر من الناس القادمين إلى الطفيلة، هما: عبد ربه، وصيخ. وهما منفيان من عمان إلى الطفيلة لأسباب سياسية أو وظيفية، ويغلب على الظن السبب الأول كما هو في السياق العام للرواية. أما عبد ربه فيستكين لنمط الحياة الجديدة ويرضى به، ويصاهر أهل الطفيلة، فيتزوج من إحدى بناتهم، ويحسم أمره بالبقاء في الطفيلة وعدم العودة إلى عمان، لأنه استطاب الحياة وتكف مع الناس.

أما صيخ، فهو مازال مصرا على العودة إلى عمان - عندما تحين الفرصة ويرفع الحظر - يحب الجبال والجمال والرقي والتقدم والأضواء والنشاط، ويحاول ثني زميلة (عبد ربه) عن البقاء في الطفيلة فلا يفلح.

هذه أبرز شخوص الرواية، ومن خلال تحريك القوابعة لها وللشخص الهامشية المساندة في فضاء الرواية تتكامل الأحداث، لتشكل العمل الفني الغني.

■ البعد الزمني:

قلنا: إن الرواية تمتد من بداية القرن العشرين إلى أوائل العقد الخامس منه، متمثلة في ثلاثة أجيال، ونلاحظ البعد الزمني لا في الحوار والذكريات عن أيام الغزو، ولكنه يتمثل أيضا في معاشة الزمن بمفرداته وتعبيراته وموجوداته.

ونلاحظ انشغال الناس بالأحداث الكبار كالحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، وكذلك ثورة الشريف حسين، وحرب فلسطين، ومعارك اليهود، ودفاعات العرب عن فلسطين، وفي كل هذه الحوادث الكبار تجد البعد الزمني يواكب الحدث، فالمجاهدون تطوعا ويدافع ديني شخصي، وحمية إسلامية في بداية أحداث فلسطين وبعد وعد بلفور ١٩١٧م، يتحولون إلى جنود رسميين في آخر الرواية عند

الاقتراب من أحداث ١٩٤٨م.

بيد أنني لاحظت تناقضا تاريخيا في هذه النقطة، وهو أن الكاتب أورد ص ١٥٤ حوارا مع جامع الضرائب (خنيفس بن رجيع) وهو يسب أحد المواطنين بالتركية، والمعلوم أن الدولة العثمانية انتهت سيطرتها على الأردن بنهاية ١٩٢٠م تقريبا، فكيف يكون هذا الخنيفس جابيا ويشتم الناس في زمن - وحسب التسلسل الروائي سنة ١٩٤٧م وما بعدها، بل في الفصل نفسه إشارة للملك عبدالله ص ١٥٦ وهذا يعني أن الزمن في عهد المملكة (لا الإمارة) فكيف يكون خنيفس جنديا (عصليا)؟

ونلاحظ حركة الزمن في التطور الذي أصاب الناس وتبدل وعيهم، فبعد أن كان الليل شديد الظلام يعيشه اللصوص ويرهبه الناس ويتيقظ له الرعيان [ص ١٠٩] تأتي كثرة المصابيح (الفوانيس) وازديادها المستمر في شوارع البلد، لتبديد الظلام والخوف، حيث يقل اللصوص، وتقل الوحوش التي كانت تجوب الشوارع ليلا، ومع هذا، وأخبار القتال هنا وهناك، وبالتالي قُلت حكايات الخوف من الليل، وقل تصديق غالبيتها [ص ١٧١]، وخف أو انقطع الغزو المباغت [ص ١٨١] وانشغل الناس بتنمية بلدتهم وحياتهم [ص ١٨٣]. وهكذا يجعلنا القوابعة نعيش البعد الزمني داخل الطفيلة وخارجها.

■ البعد المكاني:

أخذ القوابعة قارته إلى أماكن كثيرة في الطفيلة وما حولها، حتى باتت هذه الأماكن معروفة لقارئ الرواية وإن لم يرها بعينه، فهناك مرتفع كردوش الذي يطل على البلدة من الشرق [ص ٩] والسنجة ونمور فيفة [ص ١١] وزوبر قبلي البلدة وقد حدث فيه واقعة أسالت الدماء أنهارا [ص ١٧]، أما وادي زيد، وحيل الصلمة فيقعان على مشارف البلدة من الجهة القبليّة [ص ١٨]

وساحة العروض تقع شرقا [ص ٢٦]، وهناك نبع الجهير [ص ٢٠] ونبع العنصر [ص ٣٦، ٤٩] كما أن فيها الجامع الحميدي، وجامع ابن الحنفية [ص ٢٠] ومرتفع جابر الأنصاري [ص ٥٣]، ومنحدر الشيطان [ص ٥٣]..

ويذكر القوابعه أماكن كثيرة أخرى، لكن أكثر هذه الأماكن حضوراً نبع النخار، في الطريق إلى الخليل والقدس، وبروز هذا النبع في الرواية لكونه مكان رعب، حيث يستوطنه قطاع الطرق. والناظر إلى جهة الغرب من الطفيلة، بإمكانه رؤية جبال الخليل، وإن كان بينه وبينها أهوال من الرعب.

بيد أن البعد المكاني يتجلى في انعكاسات هذه الأماكن على أخلاق الناس وسلوكهم، فالطفيلة بلدة جبلية تحيط بها الصحراء من كل جانب، تعيش على الأمطار، فالجبال طبعت أهلها بالصبر والتحمل والرضا بالقليل، وقلة الأمطار كونت لديهم الإحساس بأهمية الماء، والحاجة الماسة إليه. وعمان في ذلك الوقت قرية صغيرة [ص ٦١] لا تفوق عن الطفيلة كثيراً، وهنا يدع القوابعه قارئه ليقارن بين ما خص به الطفيلة من عمران، وما خص به عمان في مقابلة عاتبة هادقة!!

والنظرة للطفيلة على أنها منفى لكل مغضوب عليه من الحكومة [ص ٩٦] يكفي للتدليل على بؤس البلدة، وشظف العيش فيها.

لكن البيوت الفقيرة المتلاصقة بتواضع جم، وخوف متمكن، تستوعبهم مع دوابهم في رضا تام، فتختلط أنفاس الناس بأنفاس الدواب، ثم يهون على نفس قارئه وقع الصدمة في سخرية مرة لاذعة عندما يبرر ذلك بأن أنفاس الحيوانات تدفئ المكان ومن فيه!! ص ٥٩.

كل هذه الأماكن وخصوصياتها كونت طباعاً لأهل الطفيلة، منها الكرم على قلة ما

في اليد والترحيب بالغريب وإكرامه، والتأزر بين الناس.

■ البعد الإنساني:

ويتجلى البعد الإنساني في الرواية في صور شتى تأخذ بمجامع القلب، وتثير موجعات النفس، لكن ما يخفف من هذه اللواعج اللمسات الحانية من الفطرة السوية التي لم تندسها المدنية بنزق فرديتها، وغطرسه أنانيته.

فالرواية تنضح بالخوف، حتى لكأنني به يختلط بطعامهم وشرابهم، ويتسلل عبر شقوق جدرانهم مع الهواء. يجدونه جاثماً فوق تلة، أو خارجاً من ثغرة، أو ممتداً في طريق، أو مضطجعا تحت شجرة، أو مختبئاً خلف صخرة، يتمثل في قطاع الطرق، ولصوص الليل، وأنياب الضباع، ومخالب السباع، ولسان حية يعبث بها رضيع، وسوط موظف غشوم، وعسكري ظلوم، وعصا معلم مفتون. ورغم ذلك كله لا يقف الخوف المتمركز هذا حائلاً دون الدفاع عن عرض امرأة اغتصبت عنوة ص ٢١-٢٤ أو رجال ضربوا على مؤخراتهم المعرة جبروتا وظلماً، من موظف متغطرس، يتقوى بهيبة وظيفته.

والجوع سيد الموقف في حياتهم، لكن هذا كله لا يمنعهم من الكرم الفطري، ولا التراحم والتواد بينهم. والعري سمة أخرى لكن عري الجسد لا يعني عري الروح ولا عري الأخلاق.

وهذه القسوة المتمثلة في كل شيء في حياتهم جعلتهم أصعب أعواداً، وأقوى على تحمل الألم، ومعاشية الأوجاع.

وترتفع نبذة البعد الإنساني في قصة تجلياته عندما نجد (مبارك بن سالم) يسامح اللص الذي يسرق حلاله لجوعه [ص ٦١] وعندما يصلي بعض المسافرين إلى القدس صلاة الجنازة على قتلى من اللصوص وقطاع الطرق ويدفنونهم،

ويدعون الحكم فيهم لله رب العالمين «ربنا يفصل بينهم ص ٣٧» ورفض ابن مسعود توبيخ المخطئ والإكثار من لومه، حتى لا يقضي على البقية الباقية من كرامة الإنسان عنده ص ١٠٦.

وربما كان الندم على سفاهات الماضي من هجمات القبائل على بعضها، صورة أخرى من صور رجوع الناس إلى فطرهم الإنسانية السليمة [ص ١٨١].

■ مظاهر الحياة:

كانت القسوة هي المظهر الواضح عند أهل الطفيلة. في تلك الفترة من الزمن، وقد استطاع القوابعه أن يجسد هذا المظهر في صور متعددة فهي واضحة في علاقة عسكر الترك بالناس، وفي علاقة المعلمين بالتلاميذ، وفي قسوة اللصوص وقطاع الطرق وفي قسوة الحيوانات والحشرات عليهم، وفي قسوة الطبيعة وفي قسوة الجوع.

وتزداد قسوة الحياة حتى تخرج المخدرة من خدرها لتشارك زوجها الحصاد، وعلى زراعيها وليدها، فتتركه جانباً لتحصد، وقد يستغرق الأمر أياماً وأسابيع وهم في الخلاء وحدهم، وقد تعرض لهم حاجة، فيذهب الزوج ليقضيها تاركاً زوجته وطفله وحدهما عرضة لكل طارئ لا يعلم عاقبته إلا الله، من وحش ضار، أو سفينة من الأخلاق عار، أو حية تضاجع الوليد في فراشه، وقد يظنها لعبة فيمسك بها، وقد يدغغها بأسنان لم تر النور بعد، والويل كل الويل للألم إن اقتربت، والحسرة والقلق والخوف الرعيب إن هي بقيت تراقب الوضع عن كثب وقد قيد خطواتها المجهول الذي قد يحدث بعد لحظة [ص ١٢٠-١٢١].

■ العادات والتقاليد:

استطاع القوابعه في حميمية صادقة جذبنا إلى عمق الحياة الخاصة لأهل الطفيلة

في تلك الفترة من الزمن، وقد أبرز لنا هذه الحياة في عدة جوانب، نذكر أهمها:

ففي مجال الطعام، نجد طعامهم قليلا وبسيطا في سفرهم وإقامتهم، و القوابعة يصفه لنا وصفا دقيقا كأننا نشاركهم صنعه والاقتيات به.

وهم يدخرون الزيت والزيتون والقرع والتمر وكل ما يمكن تجفيفه وتصبيره حتى اللبن الجميد، ويضعون الزيت في بقطينة جافة [ص ١١٣] وهم يحاولون الإفادة من كل شيء فتراهم يجمعون روث البقر في أقراص تجففها الشمس ويبيعونها في السوق [ص ١٧٤]، ويغسلون ملابسهم بالأشنان [ص ١٧١] لقلة الصابون - أو عدم معرفته آنذاك - ويعمل عدد منهم في جمع الحطب، وبيع الدلو منه بقرش [ص ١٨٢].

أما المظهر العام للناس، فنجد النساء يختلطن بالرجال، يكلمنهم ويكلمونهن في حشمة وعدم تبذل، وقد يجلسن معهم ويقدمن الضيافة لا سيما إن كن عجائز أو نوات مكانة كهجة وخضرة بنت مطلق [ص ٤٨]. والنساء يضعن على رؤوسهن غطاء ثقيل يسمى «الوقاة» تخبئ فيه المرأة أشياءها المهمة كالذهب وغيره، ولتعودها عليها بثقل معين، تشعر بخفة الرأس إذا سرق منها شيء، ولا بد لها أن تحفظ على ثقلها الذي ألفتته، وإلا أصابها الصداع [ص ١١١]. والرجال يتركون شعورهم ويجدلونها في جدائل (ضفائر) علامة على الشباب والقوة والفتوة [ص ١٤١، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٤] ومن العيب تعرية الرأس عند الرجال [ص ١٣٤] وحرام عند النساء، وبعض النساء يدخن غليوناً مثل الرجال ص ١١٢.

والبارودة شيء مهم في حياة الرجال حتى لو كان الرجل عاقرا أو شيخا كبيرا أو معوقا، وأهل الطفيلة يخافون من العقاريت، والغيلان. وقد يعتقدون أن دم الضب

المسفوح يخفف الألم، ويعتقدون في النجوم وتأثيرها، وغير ذلك من المعتقدات الشعبية الخاطئة.

أما علاج مريضهم فبطرق بدائية كالكي بالنار، أو مواد بسيطة كالمح والجنزارة وغيرهما لعلاج العين، فإذا تلفت - لتقصيرهم، أو جهلهم، أو قلة حيلتهم، وضعف إمكاناتهم - أسندوا النتيجة لقدرة الله المكتوب على الجبين. والثأر يجعلهم يعيشون في قلق مستمر، وهم دائم. ولكن حمى الثأر الفوارة تبدأ في الخفوت في ظل الجهاد، فيتسامح الناس في القتل الخطأ. ومن العادات السيئة أيضا النواح على الميت، ولطم الخدود وقص الضفائر وكلها من الأمور المنهي عنها شرعا. ويهيئ الله للناس ما يغير هذه العادات والأعراف، فيأتي الجهاد في سبيل الله على أرض فلسطين، فيتحول النواح على الشهيد إلى زغاريد!!، والتعازي إلى تهاني، والحزن إلى استبشار بالجنة، والخسارة في الأرواح إلى علو في المكانة - له ولأهله - بين الناس [ص ١٧٨]. ومن العادات السيئة الباقية الحلف بالطلاق حملا للضيف على النزول في الضيافة، وقبول القرى [ص ٨٨]. ومن سفاهتهم إطلاق الأعيرة النارية في الأعراس والأفراح ابتهاجا وسرورا، تفاخرا وغرورا، فتؤدي إلى حوادث جسام، وشجار وخصام، ولم تكن حياتهم تخلو من الفرح والسرور فقد كانوا يستغلون لحظات الفرح على قلتها ليسروا عن أنفسهم، فإذا جاء الربيع خرجوا للاستمتاع به، وإذا جن عليهم الليل كانت الرابة سميرتهم [ص ١٨٣] وإذا جاء الغيث غنى له الأطفال. أما في رمضان، فيسعدهم المسحراتي بصوته الرخيم.

■ البنية السردية:

اعتمد الأستاذ القوابعة على تقنية روائية لا تقوم على تنامي الحدث وصولا للحبكة

أو العقدة، ولا على شخصية واحدة، ولكن على رسم لوحات عدة منفصلة تتضام مع بعضها لتشكل البناء الروائي، وكذلك على شخوص عدة رئيسية وثانوية، ولذلك جاءت هذه اللوحات في كثير من الأحيان متشابهة، مما أضعف الرواية، وأوقع القارئ في بؤرة الملل لاسيما في منتصف الرواية، مما أوحى لي أن الأستاذ القوابعة كتب لوحاته تلك في فترات متباعدة، أو أنه تعمد الإطالة قصدا، دون الحاجة الفنية لذلك.

وقد اعتمد في سرده على ضمير الغائب، المطلع على كل شيء، المحيط بكل الأسرار، العالم بواطن الأمور. وأحيانا يعرج على استخدام ضمير المتكلم (الأنا) المشارك في صياغة الأحداث، أو (الأنا) الراوي غير المشارك.

ونلاحظ أن الروائي كان في كثير من الأحيان يتنازل عن حقه في السرد لشخصية من شخوص الرواية، فتتولى ذلك، وكأنها تخرج الأحداث من جب التاريخ، وهذا التداخل الفريد في البنية السردية أعطى الرواية سمة الحركة والتفاعل.

وقد اعتمد في رسم شخوصه، أو إبراز الأحداث على الحوار بين الشخوص، فنرى الجيل الأوسط يستدرج الجيل السابق ليستخرج منه المعلومات، ويستحلب الذكريات [ص ٥١]، وربما كان الحوار وعاء لنقل الأفكار وتقييم الأحداث والأوضاع، كما حدث بين المعلمين في المدرسة [ص ٨٩-٩٠] والناس والشيخ موسى بعد خطبته الجمعة [ص ١٩٩-٢٠٠] وغيرها، إلا أن الكاتب أورد الحوار بلغة عامية مغرقة في المحلية، وهي بدوية صرفة، أكاد أجزم أن الكثرة لا تفهمها، وربما غابت مدلولات بعض الكلمات حتما عن الجيل الحاضر (انظر ص ٣٢ على سبيل المثال). وإذا قبلنا من المؤلف أن ينطق شخوصه بلغة تناسبهم - مع التحفظ على هذا - فكيف نقبل أن

تكون لغة المؤلف نفسه فيما تولى من زمام السرد - قائمة في كثير من المواضع على العامية؟

إلا أن من الإنصاف أن نسجل له توظيفه لكثير من المداخلات الثقافية، مما يدل على سعة إطلاعه وطول باعه، فقد وظف حكايات من التراث، واتكأ عليها في الإسقاط على شخصه، كما حدث عند نزول الضيف ودفع الأولاد للنوم، وإطفاء السراج، وإيهامه بالمشاركة معه في الطعام [ص ١٣٥].

ووظف شخصاً تاريخياً كالصحابة وأبنائهم. كما وظف الحوادث التاريخية ولو بالإيماء إليها من بعيد، كتغريبة بني جبال [ص ١٦١] يشاكل بها تغريبة بني هلال إلى شمال إفريقية [ص ١٦٤]. ووظف الأمثال الشعبية والأدب الشعبي وبعض مصطلحات العلم، كعلم الحديث والرموز الجهادية المعاصرة من أمثال الشهيدين عبدالقادر الحسيني، وعز الدين القسام، لإبراز إسلامية القضية الفلسطينية وعروبتها، فالأول فلسطيني، والثاني سوري، جمع بينهما الإسلام.

■ لغة الرواية:

بالنظر في لغة هذه الرواية وجدناها تركز على عناصر أساسية منها: المفردة القرآنية في نسق يتساقط مع الأسلوب القرآني، فنجد - على سبيل المثال - (انظر الحوض القائم نظر المغشي عليه من الموت [ص ٨] (ويأتي على قدر [ص ١٤] وفي ص ٢٥ وحدها نجد (ثلاثة أيام حسوما.. الخيل تضبح ضبحاً.. بحر لجي.. طلع الشياطين.. أعجاز نخل خاوية).

واعتمد أيضاً على لغة تراثية (في ليل داج.. وسماء ذات أبراج.. وغياب النجم الوهاج ص ٢٨)، كما اعتمد لغة شاعرية فيها الكثير من التأمل، كما في بداية بعض فصول الرواية، وفي ثناياها. ونلاحظ أن

تشبيهاته مستقاة من البيئة نفسها (تأملت وصار حزنها مثل حزن ناقة على فصيلها ص ١١١).

ومن الأمور التي تسجل للقوابع أنه حرص على إحياء بعض الكلمات التي ماتت لقلة الاستعمال، فنحن نقول: سرق اللص. لكن الفعل «سرق» الدارج المعروف له مرادف من الجذر ذاته لكلمة «اللس» وهو «لَصَّ». فاستخدمه القوابع في أكثر من موضع (قلص ثلاث نعجات ص ٦١) وغيرها من الصفحات.

وما دمنا في سياق الحديث عن لغة الرواية ضمن بنيتها السردية، فلا بد لنا من وقفات محاسبة أو معاتبة مع الروائي نفسه، فكما قلت منذ قليل، إن اعتماده على اللغة العامية جعلها - أي الرواية - محدودة الانتشار، وليس هذا العيب الوحيد، بل ستجد كلمات يختار فيها القارئ، أهي فصيحة، أم عامية، أم وقع فيها خطأ مطبعي، أم إملائي، أم لغوي من المؤلف نفسه؟

انظر إلى كلمة (اغتاظ من الغيض) فقد وردت كثيراً بالضاد لا بالطاء (اغتاظ، يغتاظون، مغتاظين). فهل هي لغة في (الغيظ) لإحدى القبائل لا نعرفها؟ أم عامية؟ أم فيها خطأ مطبعي، أم... أم...!!! هذه الحيرة كلها بسبب اعتماد العامية في نظري، وهناك كلمات أخرى أدعى للحيرة من هذه الكلمة لا يتسع المقال للوقوف عندها.

وفي أحيان كثيرة أجد اضطراباً في تعامل الروائي مع العامية بغير مبرر، فمرة يذكر عبارة فصيحة، ويحشر فيها كلمة عامية، فتأتي نشازاً، ومرة يحدث العكس: عبارة عامية ألصق بها كلمة فصيحة، وهذا اضطراب (عدم استقرار على نمط واحد) لا مبرر له.

وهناك أخطاء من نوع آخر، يقول ص ٣٦: (علي بن القف كان يتوضأ، ويغزو الكلام

أسماعه، وضع عباءته عند المنبر، وشغل نفسه بدلاء فارغ، أخذ يملؤه ماء دافئاً) كلمة «دلاء» جمع، والسياق يفهم منه الأفراد، وصحتها «دلو». وقال ص ١٨٥: (وقد خف وقع السعال بينهم، فلم يعد الصف الذي يتبع الإمام يحتكره الطاعنون في الزمن) فكلمة «يتبع» غير موفقة، والصواب «يلي» لأنه يقصد الصف الأقرب للإمام، وإلا فكل الصفوف تتبع الإمام، حتى لو كان عددها بالمئات، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...».

ومن المآخذ على المؤلف أنه أورد مفردات لم تكن متداولة في ذلك الزمن الذي تسجله أحداث الرواية، وهذا يعيب البعد الزمني أيضاً ولا يخدمه، مثل كلمة «المناضلون» وقد تكررت كثيراً، والمعروف أن الكلمة المتداولة آنذاك كانت «المجاهدون». والمناضلون كلمة لم تنتشر إلا بعد المد اليساري في المنطقة واستعلنت واستعلت بعد حرب ١٩٦٧م عند تعاظم العمل الفدائي، فملات بياناتهم ونشراتهم فضلاً عن الصحف والمجلات والإذاعات المسموعة والمرئية. ومثلها كلمة «فوضوية» ص ٩٠ فهي من مفردات المعجم اليساري أيضاً، صحيح أنها معروفة قبل ذلك، ويعود تاريخها إلى أواسط القرن التاسع عشر كنتظيرة سياسية، لكنها على مستوى أهل الطفلة آنذاك، ومستوى الأحداث نفسها لا مبرر لها، بل إن اللفظة ذاتها لم تظهر بشكل واضح في العالم العربي إلا أوائل الخمسينات، أي بعد مضي زمن الرواية، ولم تطرق آذان الناس وتجري على ألسنتهم دون وعي إلا بعد المد اليساري وسيطرة اليساريين على الإعلام في أكثر من قطر عربي، فتداولوها بكثرة.

وهذا لا ينقص من قدر الرواية والروائي، فإن له لغات لغوية جميلة، وصورا رائعة تستحق التنويه، نذكر منها:

(هل كان الإنسان هنا يسابق أشعة الحرمان.. إذ طارده الظروف فيستتر بالصمت) ص ١٤ (فرأى جسدا عربيا مشتعلا لامرأة في مقتبل زواج العمر يبحث عن صون) ص ٢٢ (ومن تسترده البلدة بعد الغروب من الفلاحين يصل ومعه سكة محراثه، يغطي لسانها صلصال أحمر) ص ٧٧ (وجوهم قد شربت ألسنة الهجيرة) ص ١٤٧ (لا أدري لماذا خاطبني الشوق بنهم ص) ١٧٠. وهذا غيض من فيض.

■ الأفكار:

رواية «حوض الموت» مليئة بالأفكار الخاصة التي طرحها كاتبها، وأراد توظيفها لتحقيق أهداف معينة، وقد استخلصت أهم ما طرح فيها من أفكار، فبلغت أكثر من عشرين فكرة، لكنها تدرج تحت سبعة عناوين بارزة هي:

أولاً: الإنصاف التاريخي للعثمانيين:

الدولة العثمانية عملت على خدمة الإسلام، فقد بشر النبي ﷺ بالقائد والجيش الذين سيفتحون القسطنطينية «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» فكان محمد الفاتح، وكان ذلك في أواخر مايو (أيار) سنة ١٤٥٣م بعد حصار دام واحدا وخمسين يوما، وبعد أن ظل هذا الحلم يراود المسلمين ثمانية قرون، وعمل الأتراك بعد ذلك على مد رقعة الدولة الإسلامية حتى طرقت أبواب روما، وعملوا على نشر الإسلام في هذه الأصقاع، واستتبأ الأمن في ربوع الدولة كلها.

إلا أنه في أواخر عهد الدولة العثمانية تسلط يهود الدونمة على مقدرات الدولة باسم جمعية الاتحاد والترقي (الماسونية الهوى والأهداف) وأخذوا يسرون دفة الحكم نحو الهاوية، فانتشر الفساد والظلم والبيغي، حتى آل الأمر إلى عزل السلطان عبد الحميد، ومن ثم التدهور السريع المريع

الذي أدى إلى إلغاء الخلافة.

من الظلم أن نحكم على دولة هذا فضلها بالاستعمار كما روج الماسونيون من دعاة القومية، ومن الظلم أن ينكر سابق فضلها للاحق عجزها، والإنصاف يقتضي تقدير كل شيء بقدره، فإذا كان الغشم والظلم في آخر سنوات عمر الدولة، فلا يعني ذلك سحب هذا على تاريخها كله، وإنكار فضلها قرونا طويلة قبل ذلك. لخص القوابعة هذا الموقف الفكري المنصف في جملة بسيطة لا تتعدى بضع كلمات: «الله يكسر دولة شباب العصملي.. بعد السلطان عبد الحميد صارت دولة العصملي ولدنة» ص ٥٥.

ثانياً - التسلسل الحكومي على الناس، وأثره فيهم وعلى الدولة:

صلاح الوطن ونجاح الحكومات يقاسان بعدد الموظفين الصالحين في النظام، لأنهم يعملون برفق وفهم لتعديل المائل والمعوج، فينعكس ذلك رضا من الناس على الحكومة، وسعادة تشيع في المجتمع، أما كثرة اعتماد النظام على نماذج مستغلة متسلطة غشومة ظلومة جهولة، فإنه يؤدي إلى تأفف الناس وضجرهم، وعدم رضاهم، وسخطهم على النظام [ص ١٤٨]. فتسلط مندوب الضرائب، وسوء معاملته للناس [ص ١٠٧، ١٠٨، ١٤٢]، يعتمد فيه على هيبة وظيفته، ويخيف الناس بالحكومة [ص ١٤٣]. وكذلك المعلمون في المدارس [ص ١٤٤]، والموظف الإداري الفاسد الذي يهدد بسيف السلطان [ص ١٦٣].

ومن الخطأ معاملة الناس كأنهم عبيد، لا يصلح لهم إلا السوط والأحكام العرفية، وسياستهم بالتسلط والقهر، فالحكم الذي يعتمد على موظفين تتحكم فيهم هذه العقلية حكم ضعيف مهزوز، لا يثق ببقائه، ولا يخدم مستقبله [ص ٧٠، ص ٧١، ص ١٤٣]. وليس معارضة بعض الناس لموقف ما من الحكومة، أو لأحد مسؤوليها، أو

موظفيها، أو انتقاد خطأ ما، أن الناس ضد الحكومة بأشخاصها. فالكره ينصب على الفعل لا على الأشخاص، والرفض للسلوك والعمل، لا لأصحابه، فإنهم لو استقاموا، لعادت المحبة لأشخاصهم [ص ١٤٣]، ومن يصنف الناس وطنيين وغير وطنيين حسب موافقتهم لهواه [ص ١٤٤] أو بناء على موافقتهم للحكومة وقراراتها وموظفيها [ص ١٦٣] فهو غبي متعنت. والموظف الذي يلوح بسيف هذا التصنيف في وجه الناس يضر الحكومة ولا ينفعها [ص ١٤٣].

كما أن الضغط على الناس بالضرب أو السجن أو النفي لمجرد المعارضة أو اختلاف وجهات النظر، لا يغير من الحقيقة شيئا، ولا يبدل مواقف الناس، وكما قيل: «من وافقك على رأيك تحت التهديد، ما زال على رأيه الأول»، وكل ما يفعله القهر - بأي شكل من الأشكال - أن يؤدي إلى الإحباط، وتكوين نماذج من الناس شائثة، أقل ما توصف به، أنها تنعزل، وتصبح سلبية لا مبالية، فإذا كثر القهر، وطال غالبية الناس، شاعت السلبية واللامبالاة في أوصال الشعب كله، فالجو العام له حكمه على الناس [ص ١٤٩]، ولا بد أن تنتبه الحكومة لمثل هذا الوضع النفسي، حتى في معاقبتها للمذنب، فلا يتجاوز العقاب حجم الذنب، فيتعدى إلى كرامته، وقتل المروءة والشهامة عنده [ص ١٠٦].

ثالثاً - تهافت بعض الثوريين واليساريين، وكشف شعاراتهم، وفضح سلوكهم:

فاختفاء الثوريين واليساريين تحت شعارات براقمة مثل خدمة الجماهير، وتبني قضاياهم، والثورة على الرجعية، والعمل ضد الاستعمار، مع قضاء جل أوقاتهم في لوك هذه العبارات الفارغة، وقراءة منشورات أحزابهم السرية، أو تجارب أحزاب مماثلة في دول أخرى للاقتداء بها

[ص ١١٤] وترسيخ مفاهيم ضالة تؤدي إلى الصراع الطبقي والعنف [ص ١١٥]، بينما سلوكهم ينضج بالازدواجية وسوء السلوك، واستغلال الناس باسم تطویرهم، فيشربون الخمر [ص ١٢٧] ويعتدون على الأعراض، وينتهكون المحرمات والمقدسات [ص ٩٢].

وليت الأمر اقتصر على مجرد شعارات، أو سلوك معوج يرتكبه أي فاسق، لكنه يتعدى إلى منهج يحاول الاستقرار والرسوخ بالتركيز عليه، بقتل إنسانية الناس، وتربيتهم على قبول الذل والخنوع، وتبرير العنف والقسوة، وتقديس التصنيف الطبقي، والرضا بهذا المسخ في إلغاء شخصيات الناس تحت شعار تثويرهم، والتفاعل الجماهيري مع الحزب، وتبني (أيدولوجيته) بالإرهاب الفكري أو الجسدي [ص ٩٤] سيدفع الناس لتفضيل الجهل والرضا بالواقع الممض، على طريق يؤدي بهم إلى مزيد من المعاناة [ص ١٢٤].

وهم يتوسلون لإقرار منهجهم ورؤاهم بكل وسيلة ممكنة، حتى لو كانت غير أخلاقية أو إنسانية أو عقلانية، لذا فهم يرمون كل مخالف لهم بأوصاف يصوغونها لتفسير الناس من المخالفين، ابتداء من الرجعية، ومرورا بالانبطاحية، والزنبقية، والتخلف، والطابور الخامس، و.. حتى الهلوسة التي يعتبرونها نتيجة الاطلاع على فكر يناقض فكرهم، وكتب لا ترضى عنها منشوراتهم، أو تدعو لترك منهجهم وتبني منهج أقوم [ص ١٤٦].

وهذه شعارات فارغة، وسطحية، ولا تخيف إلا الجبناء، ولا تؤثر إلا في الضعفاء، وهم يدركون ذلك بأنفسهم، بل إن من سطحية هذه الأفكار أنها لا تتجاوز ألسنتهم، وتكشفها الفطرة السوية المستقرة في أعماق كل واحد منهم، أن له إلهاً يعبد، وربما يُقدَّر ويقدر، لكنه لا وعي منه - إلى الله، فيهدف باسمه (ظمان يا ناس ورب

الكعبة) ص ١٢٧.

وليس هذا وحسب، بل إن الواقع والتاريخ وما آلت إليه الأمور، كشفت زيف هذا المنهج، فليس بالخيز وحده يعيش الإنسان [ص ١٢٢]، وهذه أحوال من تبنوا هذا المنهج دولا وأفرادا سنين طويلة، كيف آلت بهم؟!

رابعاً: الإصلاح الإداري والاجتماعي والسبل التي تحقق ذلك:

حياة الشعوب مليئة بالأخطاء، وهذه الأخطاء لا تترك للظروف لمعالجتها، بل لا بد من اتخاذ خطوات إيجابية في هذا الطريق، فازدواجية السلوك في التربية والتعليم، من ضرب التلاميذ وإهانتهم بصور لا إنسانية، مع تقصير في العمل، ثم التظاهر بالمثالية أمام المفتش (الموجه) [ص ٨٣، ١٤٦] لا يخدم الأمة في شيء، بل يضرها ضرراً كبيراً، ولا يصلح هذا الوضع ترك الأمر للظروف، حتى يأتي مجرد موظف واحد مستقيم يفاجئ المعلمين دون سابق إنذار [ص ١٤٨] فيطلع على السليبات، بل لا بد من تأسيس نظام تعليمي وتربوي لا يسمح بهذه الازدواجية.

وسلوكيات المعلمين والموظفين غير المنضبطة ولا المسؤولة لاتعني دائماً رضا الدولة أو النظام عنها، بل نجد - أحياناً - أن الحكام والمسؤولين الكبار أرحم وأكثر تفهماً لأوضاع الناس من الموظف الصغير الملاصق للناس والملازم لهم، لكن - بالمقابل - لا يكفي أن يزور مسؤول كبير منطقة ما، على تباعد في الزمن بين الزيارات، ويوصي بالرحمة أو الاهتمام بمصالح الناس [ص ١٥٦-١٥٧]، بل لا بد من سن قوانين وتشريعات تكفل هذا، مع تفصيلها والرقابة عليها وعلى أداء الموظفين، ولا تترك لضمير الموظف، أو حسن تشابه، أو عراقية أصله ومنبته.

كما أن السلوكيات الاجتماعية الخاطئة لا بد لها من قوانين تعمل على تغييرها بقوة

التشريع، مع مداومة المحافظة عليها وتفعيلها، وعدم المحاباة فيها، حتى تصبح سلوكاً اجتماعياً ناضجاً، فلا يعقل أن تترك مسألة إطلاق الأعيرة النارية في الأفراح تفتك بالأجساد، وتحصد الأرواح، انتظارا لبلوغ الناس سن الرشد الحضاري وحدهم، دون تدخل القوانين [ص ١٧٧].

خامساً: إنصاف مدينة الطفيلة:

والرواية ركزت على الطفيلة تركيزاً جلي كل المعاناة التي تعانيها، من قبل انتهاء الدولة العثمانية، ورغم أنها كانت وعمان صنوين، إلا أن عمان تقدمت عليها كثيراً، رغم أن المسافة بينهما لاتزيد على ١٨٠ كم. ويوحى لنا القوابعة بأن هذه المعاناة مستمرة حتى الآن، فالحكومة تنظر للطفيلة على أنها منفى كل مغضوب عليه، وأن حظ الطفيلة من العناية والرعاية أقل من سائر مدن المملكة رغم أنها ما قصرت في ماضيها ولا في حاضرها في خدمة الوطن والدولة، منذ مشاركة أهلها في ثورة الشريف حسين، إلى الجهاد في فلسطين، إلى أيامنا هذه.. كل هذا بالإيجاء الصامت، أما أن لها أن تنال شيئاً من اهتمام المسؤولين بها؟! ولعل هذا هو الهدف الأسمى للرواية.

سادساً: تصحيح بعض المفاهيم الاجتماعية:

الحب بين الرجل والمرأة هو ما كان بعد الزواج، ونشأ وترعرع في ظل حسن العشرة [ص ١٢٢] وهو الأبقى والأدوم والأرسخ، أما أمانتي الصبا، وخيالات المراهقة فهي لاتصمد أمام مرارة الحياة وقسوة العيش، وإن كانت تظل ذكرى عزيزة، ترطب جفاف القلب، لكنها لا تخرج عن الذكرى ولا تتجاوزها إلى الفعل الذي يحرم، أو السلوك الذي يخرم المروءة ويخدش العفة [ص ١١٩-١٢٠].

والتحول الحضاري أودى ببعض العادات

الحسنة والقيم النبيلة. فقد كان لكل قبيلة مضافة عامة، لاستقبال الضيوف، ومواساة الجوعى، وهي بذلك تعمل على ترابط الناس. وهذه وغيرها قيم نبيلة، فنعمت الحضارة التي ترسخها، أما أن تهب رياح التطور نحو التحضر، فتلغي هذه القيم، فتحل الفردية محل الجماعية، والانانية محل التراحم، واللامبالاة محل الاهتمام بالآخرين، فلا، وألف لا، ولذا لا بد من الحفاظ على قيمنا الأصيلة، فلا نعتبرها قرينة الماضي، بل لا بد من التمسك بها، لتظل قرينة العصر كلها، والأجيال جميعهم [ص ١٨٤].

سابعا: اليقظة والحذر من الأعداء أيا كانوا:

فلا يعني ذهاب حثالة عسكر الترك المتفطرسين، ولا تراجع عدد الوحوش الضارية في شوارع الطفيلة، بعد اتساع رقعة المصايح في البلدة، ولا القدرة على مقاومة الجراد، والتحصن ضد البرد والتلج، ولا غزو القبائل، ولا معاهدات كف الاعتداء من أي جانب، أن تترك للراحة، فهناك أعداء كثر، ويجوارنا عدو تاريخي، يستعد ويخطط بألف وسيلة للسيطرة علينا، إن بالحرب وإن بالسلم، فالحذر الحذر، فإنه إن عجز عن تحقيق أمانيه، فهناك مفاعله الذي يجاورنا ويذكرنا بما يضره لنا، وهذا المفاعل الذي يستترون عليه في (ديموتة) سيحدث أثرا - لا يعلم إلا الله مداه - في السنوات القادمة، وما لم نحتط للأمر، فسيكون تقصيرنا وركوننا للدعة، وأحلام العيش الرغيد، أساقين في نعش هذه المنطقة بأسرها، والميت المقصود لذاته هو العربي المسلم، فهل نتنبه [ص ٢٠٧-٢٠٩].

■ التصور الإسلامي:

الخلفية الفكرية للكاتب، أو الخط العام

للعمل المبدع (بفتح الدال) يتحدد من مسارات عدة، ابتداء من النسيج اللغوي، إلى بناء الشخص، حتى الحوار والأفكار. ورواية «حوض الموت» يبرز فيها الخط الإسلامي - وإن اعتراه غيبش في بعض الأمور - ففضلا عن استعمال الكاتب للغة القرآنية، أو التراثية المستمدة من الأحاديث النبوية، أو السيرة، أو قصص الصحابة، نجد الأمور التالية:

١ - الصلاة على الميت ودفنه، كائنا من كان [ص ٣٧]، ومنها الصلاة على الغائب، لا سيما الشهداء في معارك فلسطين [ص ١٧٠-١٧١، ١٨٢، ٢٠٣-٢٠٤].

٢ - نظرة الناس لعلماء الدين، وأنه معتب عليهم إذا تغافلوا عن مقاومة المنكر [ص ٩٣]، ولقد قام بذلك خطباء الجمعة [ص ٩٣] لا سيما موسى بن إبراهيم التنوخي، لكن يتجلى هذا الدور في حياة وسلوك ابن مسعود، فهو مصلح اجتماعي [ص ٧٦، ٧٠] يعالج أخطاء الناس برفق ولين، مع بيان الحكم الشرعي في كل ما يأتون به من أعمال تعتبر عندهم من المسلمات، فيرفض النواح على الميت، وجز الشعور، ولطم الخدود [ص ٦٣]، ويبين حكم أكل الصنج، ومما لا بس ذلك من خرافات [ص ٦٨]، ويعمل على تغيير الأسماء التي لا تليق، بأسماء جميلة، كما هي سنة الرسول ﷺ [ص ١٢٢-١٢٣]، مع بيان حرمة أكل حقوق المرأة وميراثها باسم العادات والأعراف [ص ١٢٨].

٣ - الأثر الطيب للقرآن في الناس، وحرصهم وحبهم لسماع الصوت الندي يتهد به من هنا أو هناك [ص ٦٢].

٤ - وبدا التأثير بالسنة عندما أوحى لنا الكاتب أن عطاش (المعلم اليساري سابقا) تغير طبعه في الطعام، فبعد أن بدأ يعود إلى صوابه، قل زاده، وهذا له مرجع في السيرة، وفي حديث النبي ﷺ: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في

سبعة أمعاء»

٥ - استخدام حكايات من التراث الإسلامي، وإسقاط كرم أهل الطفيلة عليها [ص ١٣٥].

٦ - استخدام الدعاء في كثير من المواضع، لكن بروز دعاء قرآني يوحى بالعمق الإسلامي في النص، مثل «فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك» [ص ١٧٢] وهو دعاء الكرب الذي دعا به يونس - عليه السلام - وهو في بطن الحوت، ومثله دعاء السنة «سبح قدوس.. رب الملائكة والروح» [ص ١٧٢].

٧ - تأصيل الجانب الإنساني بعدم مجاوزة الحد في العقوبة، إلى التسفيه والإهانة والسب والشتم (مثل ما يقول ابن مسعود: إذا أذنب بشر فلا تجرحوا بقية من كرامة الإنسان عنده) [ص ١٠٦]. وهذا التصور مستمد من واقعة إقامة الحد في حياة النبي ﷺ، فتجاوز أحد الحضور، فسب المحدود، فقال ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا الشيطان عليه، ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

٨ - رفض المجتمع الإسلامي للملحد الفاسق - لإلحاده وفسقه - لا لشخصه، لأنه نشاز في جسم صحيح، وهذا معروف حتى من أبسط الناس، لموافقته للفطر السوية، لكن الداعية إلى الله يقدم الخير، فيرحم الجاهلين، ويتلطف بالمغرر بهم، ويسعى إلى مد يد العون لهم، وبيان خطأ فهمهم وسلوكهم. أما محاربتهم أو مقاطعتهم بدون توعية مسبقة فمرفوض، وهذا ما كان من ابن مسعود [ص ١٠٤].

٩ - الجهاد من أجل فلسطين فرض عين على أهلها ومن حولها والمسلمين كافة، ولا فرق بين الجهاد من أجل الأولاد والجهاد من أجل البلاد، فالأمران مرتبطان ارتباطا قويا [ص ١٧٢].

هذا التصور الإسلامي الطيب اعتراه غيبش وقصور، كنت أتمنى لو أن الكاتب لم يقع

فيه، وإن ذكره، قام بتجلية الخطأ فيه، وهو قد فعل في بعضه، وتغافل عن البعض الآخر، ومن ذلك المخالف للتصور الإسلامي ما يلي:

١ - استعمال كلمة «إذا شاء الظرف ص ٣١» وهذا تعبير شعبي شائع، فيه خطأ كبير، فالمشيئة لله وحده، والظروف بيد الله يجريها كيف يشاء، وإسناد الأمر لها إخلال بوحداية الله.

٢ - ومثلها كلمة صدفة «جاء جدعان، وجاء مصلون، وصدفة قدم للشيخ مريدون توافدوا من العقبة ومعان ص ١٧١» والكون - في التصور الإسلامي - ليس فيه صدفة، بل كل شيء مقدر بمقدار حدده الله، والآيات في ذلك كثيرة، واستخدام كلمة «صدفة» يناقض التصور الإسلامي للكون وما يجري فيه.

٣ - استعمال كلمة «رجل دين» [ص ٩١]، وهذا تعبير كنسي، وكلمة وافدة علينا، لأن كلمة رجل دين لها حدودها وإحباطاتها الكهنوتية، والتي أبسطها أنه يستمد سلطانه من الله، أما نحن فعندنا «علماء بالدين» وليس «رجال دين» وعلمائنا بشر مثلنا، يخطئون ويصيبون، وليسوا وسطاء بيننا وبين الله، فالتوبة إليه لا تحتاج إلى اعتراف «المخلوق آخر» مهما كان علمه أو مكانته.

٤ - ومما يناقض التصور الإسلامي، ويجرح التوحيد، القبورية المتفشية بين الناس، من تقبيل أضرحة الموتى والنذر لأصحابها [ص ٩٦]، وأشد من ذلك وأتكى، الصلاة في الضريح وبجوار القبر [ص ١٣٨]، وقد رأيت ذلك بنفسى في قرية المزار بالكرك عند أضرحة الصحابة الثلاثة. والناس تظن أن ذلك يقربهم إلى الله، رغم أنها لا تجوز بتاتا.

٥ - انتشار اللعن في الرواية، مثل لعن الريح الشرقية [ص ١١٣] البلد وأهلها [ص ١٥٩] اليوم الذي ولد فيه [ص ١٢٤]

الناس لبعضهم لا سيما للوالدين [ص ١٥٣-١٥٤]، والعصا [ص ١٨٦]. وهذا أمر خطير جدا.

٦ - الحلف بغير الله، وشيوعه بين الناس، وقد ورد في الرواية دون إنكار مثل (اليوم نحلف بحياة بعض، وبحياة متعب وصالح ص ١٢٢) ومثل (وعقال أبي ص ١٥٥) وقد قال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك».

٧ - البدع المنتشرة في حياة الناس، وليست من السنة في شيء، كإحياء الذكر ليلة الاثنين [ص ٨٦]، و(التراتيل) أي الأذكار التي يقولها المؤذن على المئذنة (أو سطح المسجد) قبل أذان يوم الجمعة [ص ١١٥-١١٦]، والسفر خصيصا للصلاة في المسجد الإبراهيمي في الخليل، وقد قال النبي ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

وهذه المخالفات لا تبررها أن واقعية الرواية تحتمل لأنها موجودة في المجتمع، ذلك لأن دور الأديب ترقية المجتمع والنهوض به بتجلية الإيجابيات، وكشف السلبيات والتغيير منها، لا مجرد تسجيل الوقائع والمثالب والسلبيات كما هي، فإن تكرارها يثبتها ويقنع الناس بها، أو يزيدهم تأكفا معها، وأضعف الإيمان، أنهم لم يروا أو يسمعوها من ينكرها. ويستطيع الأديب المسلم فعل ذلك بأدواته الفنية، وقدرته الروائية دون زعيق أو خطابة أو مباشرة، وقد أجاد القوابعة ذلك في إجابيات التصور الإسلامي سائلة الذكر.

■ ملاحظات عامة:

هناك أمور لاحظت أن القوابعة أقحمها في الرواية إقاما مفتعلا، لأسباب يمكن تصورها أو افتراضها، لكنه لم يستطع أن يجعلها جزءا من نسيج حركة السرد، بحيث تبدو طبيعية غير متكلفة، وساشير إلى

واحدة منها وهي مشكلة الجنس. فقد أورد الروائي أكثر من حادثة ليدلل على أن الجنس كان موضع صراع بين العتاة الظلمة وبين الفقراء، حيث تستغل حاجة المرأة أو ضعفها أو ضعف زوجها ليعتدى عليها، إن بالقوة، وإن بالخدعة. وقد وفق القوابعة في أكثر من حادثة، كنجاة زوجة الرجل الذي كان يعالج عينيها في فلسطين، عندما مر بموقع قطاع الطرق [ص ٣٤-٣٥]، واعتداء عسكر الترك على امرأة واغتصابها [ص ٢٢-٢٣]، ومراودة الفتاة الجبلية عن نفسها في وحدتها وفقرها [ص ٢٨-٢٩] ومغازلة الرجل لحبيبته السابقة وحسرتة أنه لم يتزوجها [ص ١٢٠-١٢١]. كل ذلك ليدلل القوابعة على أن الناس يحرسون على العرض، ولا يفرطون فيه، حتى في لحظات الضعف الإنساني لا يقبل منهم ذلك، ويهب الصالحون لمعالجته قبل التماذي في تلويثه [ص ١٥٨-١٥٩].

وقد وصلت إلينا الرسالة التي أرادها القوابعة، لكن التماذي في رسم الصور الجنسية للتدليل على النقطة السابقة لم يكن له مبرر في حادثة المركز الصحي (سرايا الحكيم ص ٦٩-٧٠) ولا في خطبة الجمعة [ص ١١٦]، لأن الأولى كانت مقابل علاج عين الولد، فلما رفضت الأم المارودة ترك الولد بلا علاج فاعورت عينه!! وهذه مبالغة غير مستساغة، وفي الثانية، لا معقولة الحادثة لأكثر من سبب ولا مجال لذكره هنا.

أما إن كان القوابعة يقصد بهذه اللقطات الجنسية ترطيب جو الرواية، وتخفيف حدة قسوتها، فكان يكفي الغزل العفيف على غرار ما حدث بين ريا وخطيبها السابق [ص ١٢٠-١٢١].

* العصفلي: النطق العامي لكلمة (العثماني) وهي محرفة من اللفظة التركية (أوصماتلي).

